

في الشعر السوداني

الطبيعة

للاستاذ علي العماري

-٧-

—*—*—*—

كنت كتبت منذ عام أبحاثاً في الشعر السوداني وأبحاثاً
وطبيعية ثم حالت ظروف دون إتمام هذه البحوث . والآف
نصائف الكتابة في هذا الموضوع ، ونبدأ بالحديث عن تصور
الشعر السوداني للطبيعة السودانية .

الأدب طابع الأمة وصورة حياتها ، ومظهر عواطفها ،
وأبجهااتها ، وسجل تقايدها وعاداتها ، وهو الميز لها (إن صدق)
عن كل أمة أخرى غيرها ، تظهر فيه أرضها وسماتها
وجدها وعناؤها ؛ وشرها وخيرها ، وحلوها ومرها . ولكثير
من الأمم نوع من اللباس أصيل فيها ورثته عن القرون البعيدة ،
ويعرف في كل أمة باللباس الوطني لها ، وتستطيع لأول نظرة
إذا كنت خبيراً — أن تدرك وطن اللباس من ملبوسه ، وأن تعرف
جنسه من زيه ، وكذلك الأدب ولا سيما الشعر ، إذا استوحى
فيه الشعراء بيتاتهم ، ولم يقلدوا فيه غيرهم ، كان صورة صحيحة
لبلادهم ، ومميزاً واضحاً لهم . وإذا كنت تجد من الشباب ما يصح
لأكثر من واحد من الشعوب فكذلك تجد من الشعر ، فأنت
تقرأ مثلاً قول الشاعر

ألا ليت الرياح مسخرات بمرحلتنا تبارك أو تأوب

فتخبرنا الشمال إذا أتفنا وتخبر أهلنا عنا الجنوب

فيقع في نفسك ، بل تكاد تجزم أن هذا شعر سوداني ، أو

مما نيك في رفق ويسر وقلة فضول . وفي الآداب الغربية الآن
مذاهب تدعو إلى القصد في التصوير البياني والاكتفاء بشرح
الأفكار الجديدة وحدها وترك ما عداها .

محمد عبد المنعم حفاصي

لبحث بقية

المدرس في كلية اللغة العربية

على الأقل بقوله شاعر يعيش في السودان . مع أن قائله شاعر نيجدي
والطبيعة من أخص الأمور التي تصيغ أدب الأمة بصيغتها
وتطبعه بطابعها ، فليس من الممكن أن يكون الشاعر الذي عاش
في صحراء يضرب فيها عمسياً ومصيحاً ، وتروعه وحوشها وبلذعه
حرها ، وينتجع فيها مواطن الماء ومناخ المشب ؛ كالشاعر الذي
يعيش على شاطئ بحر أو نهر . ينتسم النسيم العليل ، ويروي من
صور الآفاق والأرض والناس ما لا يرى صاحبه ، ولن يختلط
الشاعران أحدهما بالآخر إلا إذا خرجا عن دائرة الشعر الأصيل
إلى دائرة الشعر التقليدي ، حتى الكلمات ودلالاتها لها آثار
بعيدة المدى في طبع شعر الأمة بطابعها . فكثير من الشعوب
— مثلاً — يعتبر الخريف فصل الجذب تنجرد فيه الأغصان ،
وتذبل الأزهار ، وتخلو الأرض من النباتات ، ولذلك يقولون
للرجل إذا بلغ أقصى العمر إنه في خريف الحياة ، ويقصدون من
ذلك أن ما كان فيه من شباب وقوة قد ذهب . ولكن الشاعر
السوداني الذي يصدر عن عاطفة منساق مع شعور قومه ومهيرة
عما يتخلج في حياتهم من خصب وعاء لا يستطيع أن يبر عن
الخريف إلا أنه شباب الزمن . وفصل الحياة والتمسك . كما عبرت
عنه الشاعرة البدوية السودانية فجملت فيه (الطبيعة الصامتة)
والجمال الحبيب . فهذا السحاب يحتم في الشرق مؤذنا الأرض
بعودة شبها الأخضر . أو هو قد آذنها أمس وقبله ، ويؤذنها
الليلة بواكب مدار . وتلك هي دجاجة الوادي ترجم كمادتها في
الخريف إلى بيضها تحتضنه لتب له الحرارة والدفء ، وتقيق
الصفادع بطورق المزارع والناهل ، وأولاد الأبل تعدو بسرعات
خاف أمهاتها فرحاً بالخريف واستبشاراً به) وهذا في الحق تصوير
رقيق لمظاهر الخريف ومباهجه التي تسرى في الإنسان والحيوان
على السواء .

ولسنا نمنى من شعر الطبيعة ان يقول الشعراء — فقط —

في المناظر الطبيعية التي تتراءى لهم في بلادهم ، ولكننا نقصد أن
تكون عواطفهم وأبجهااتهم مطبوعة بطابع هذه المناظر فنجد
تشبيهاًهم وتخيلاًهم مستمدة من حياتهم ؛ ولست تقضى العجب
من هذا الشاعر الذي ينتقل بين (دادى هور) و (وادي كتم)
و (صحراء التهور) و (حدائق القرن) ثم لا يذكر في شعره

مرا كز دارفور؟ ولا نهمه في شعوره بل إننا نقول أنه مع هذا النهج القديم صادق الشعور .

حيالك مليط صوب العارض النادى وجادوا ديك ذا الجنات من وادى
أسيقتنى برح آلامى وما أخذت منا الطايا بإيجاف وإجماد
كثباتك العفر ما أبهى مناظرها أنس لدى وحشة رزق لمرتاد
فباسق النخل مله الطارف يلثم من ذيل السحاب بلاك وجاهاد
وأعين الماء نجسرى من جداولها صوارما عرضوها غير إجماد
والورق تهتف والأظلال وارفة والريح ترفع ميسادا لميساد

وقد نجد الشعراء المحدثين يتجهون اتجاهها قومياً وإن كان بعضهم ترك الأفق الشرق عامة ، واجبه بمواطئه وميوله وشعره إلى أفق آخر لا يستقيم معه أدنياً . وعندى أن الأدب كالدين ، فن ترك ديننا فقد كفر بالله . ومن ترك أدبنا فقد كفر بالوطن . وهؤلاء الشعراء المحدثون ينظمون - أحياناً - في مناظر بلادهم . ولشاعر التيجانى يوسف قصيدة في جزيرة « تونى » وهي جزيرة تقع بين الخرطوم وأم درمان خصيبة التربة . طيبة الهواء ، وصفها الشاعر فأجاد ، ومن قوله فيها

يادرة حضمها النيل واحتواها البر
صحا اللجى وتة شاك في الاسرة فجر
وطاف حولك ركب من السكراكي أغر
وراح بنفض عينيه من بنى الأبيك حمر
فساج بالأبيك عس وقام في المش دبر
كم ذا تمازج فن على يدك وسحر
بخور نور وتنفو شاة وينفق حمر
والبهم عرح والزر ع مونتق مخضر
تجاوب اللحن والطا حن والنشاء المسر
وهب صوت النواعير وهو في الشجر مر

وكلمها - وهي طويلة - على هذا النحو من التصوير الناطق والتصوير البسيط .

أما الأدب القومي فهو سورة صحيحة للحياة السودانية الطبيعية ، ففيه الأحاديث الطوال عن المحائب البر ، التي تجود عليه بالطر ، وعن الأشجار الباسقة من سرح وسدر وحمير ، وعن

ألا البان والدم والخيف من منى ووادي العقيق .
والشعر السوداني شمران : شمر الخاصة : والشعر القوي .
والنظر الفاحص في شعر الخامسة يهدتنا إلى أنه كثير من شعر الأمم الشرقية مشدود إلى الشعر العربي بأريطة وثيقة ولا تكاد تجد له استقلالاً عنه . وإذا كان الشعر في بعض البلدان محل من تقليد الشعر العربي القديم فإنه لا يزال في السودان حقيقاً بمقتضى آره ، متتبعاً خطواته ، فالشعراء يبدؤون قصائدهم بالنزل كما كان يفعل القدماء ويقفون على الأطلال والدمن ، ويستوقفون الأصحاب كما وقف القدماء واستوقفوا ... وهكذا

وبطبيعة الحال لا نعدم في هذا الشعر الكثير الشاعر الصادق والشعر المصور فقد يصف الشاعر رحلته على الناقة ، كما وصف القدماء ، ويقف على الأطلال كما وقفوا ، وهو مع ذلك صادق لأنه صر بهذه التجارب السودانية ، وعاش فيها حيناً من الزمن فهذا الشاعر السوداني حين رحل إلى وادي هور (وهو اسم واد غرب السودان ، وحوله من الآثار ما يدل على أنه كان مشوى حضارة قديمة) رحل على ناقة لقي معها من عنت السفر أو مشقة الطريق ما لقي ولا شك أنه حين وقف على هذه الآثار فاضت عبراته . وتدقق شعوره ، فصور ما وقع له ، لم يقلد فيه غيره ، ولم يصدر عن فيز عاطفة ، وهذا ما عرفناه من تاريخ حياته قال يذكر حبيبه :

لم أنسه إذ زارنى منه خيال ما استقر
زار الرجال وبيننا سير على البيد عسر
إيجاف شهر اللطى تخوض في كسب عفر
وسرى ليال لم تذق طعم الكرى حتى السحر
سبحان ربى أمين را دى النيل من دادى هور
وادي الجحاجة الالى عمروه في خالى المصر
وعواصم القلوم الدى بن بكرهم تحلو السبر
زرت الربوع فخافنى صبرى قد كرى من غير

ما كان لى كيدا لسوا ولا فؤاد من حجر

بخل الجفون على ترى النا دين من إحدى الكبر

وهذا الشاعر سمر بوهف بلاده ، وقد قال في كثير منها :
وأشبه شعره بالشعر العربي قصيدته في (مليط) وهي مركز من